مجلة الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2023/01/02م
تاريخ القبول: 2023/04/09م

نقد النقد في كتاب (النقد المنهجي عند العرب) لمحمد مندور
عرض وتحليل

د. أحمد بن علي بن أحمد آل مريع عسيري*
aamoraea@kku.edu.sa

الملخص:

تهدف الدراسة إلى مقاربة كتاب (النقد المنهجي عند العرب ط1، 1943م) لمندور؛ في ضوء نقد النقد، بوصفه يمثل وحدة نقدية بذاتها، تقرأ مدونة نقدية تراثية، وقد انقسمت إلى مقدمة، فتمهيد، وثلاثة مباحث، في المقدمة: الموضوع والدراسات السابقة، وفي التمهيد تناولت مفاهيم مهمة حول مصطلح نقد النقد، وعلاقة الكتاب بمجاله المعرفي. وتناولت في المبحث الأول أهمية الكتاب ومنهجه وإنجازه، وفي الثاني: وقفت الدراسة على نقد المؤلف للمتون النقدية التراثية، وسجلت الملاحظات تجاهها، وفي المبحث الثالث كشفت الدراسة عن منطلقات القارئ ومفاهيم القراءة؛ من خلال الوقوف على تصور الكتاب لكل من: الأدب والنقد، والمسارات النقدية والمصطلحات الإجرائية، والعلاقة بالآخر (اليونان- الغرب)، والأسس النقدية. وخاتمة بالنتائج، وتتمثل في الآتي: اتضح الوعي المنهجي المحكم على مستوى الرؤية، والاستيعاب، والتصنيف وحضور الشخصية الخبيرة. لم يكن المنهج الذي وظفه خارجا على طبيعة النقد والأدب العربيين، ولا مفروضا على المدونة التراثية، بل كان منسجما ومستجيبا لطبيعتهما. لم ترتهن المعالجة للعرض التاريخي. استفاد المنهج من المنهج التاريخي، وكان مباشرا في قراءة النصوص النقدية.

الكلمات المفتاحية: نقد النقد، النقد المنهجي، النقد العربي، الوعي المنهجي.

* أستاذ الأدب والنقد المساعد - قسم اللغة العربية وآدابها - كلية العلوم الإنسانية - جامعة الملك خالد في أبها، المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: عسيري، أحمد بن علي بن أحمد آل مريع، نقد النقد في كتاب (النقد المنهجي عند العرب) لمحمد مندور عرض وتحليل، كلية الآداب، جامعة ذمار، اليمن، مج5، ع2، 2023: 535-569.

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

OPEN ACCESS
Received: 09-09-2022
Accepted: 27-10-2022

مجلة الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

Criticism of Criticism in the Book of *Systematic Criticism of the Arabs* by Mohammed Mandour: Presentation and Analysis

Dr. Ahmed bin Ali Bin Ahmed Al Moraia Assiri *

aamoraea@kku.edu.sa

Abstract :

This study examines Mandour's book, *Systematic Criticism of the Arabs* (1st edition, 1943), through the lens of critical analysis itself, as it represents a self-contained critical entity within traditional critical discourse. It follows a structured format comprising an introduction, a preface, and three sections. The first section explores the book's significance, its methodology, and its accomplishments. The second section delves into the author's critique of traditional critical texts, noting and documenting observations regarding them. In the third section, the study unveils the reader's starting points and concepts of reading by examining the book's perspectives on various aspects, including literature and criticism, critical approaches, procedural terminology, the relationship with the Other (Greece-West), and the foundations of criticism. The study concludes with the following findings: The author's systematic awareness is evident through their insightful vision, comprehensive understanding, meticulous classification, and the presence of an expert persona. The approach taken in the book is not detached from the nature of Arabic criticism and literature; rather, it aligns harmoniously and responds to their inherent characteristics. The treatment of the subject matter does not solely rely on a historical approach; instead, the curriculum benefits from the historical method while directly engaging with critical texts.

Keywords: Criticism of Criticism, Methodological Criticism, Arab Criticism, Methodological Awareness.

* An Assistant Professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Humanities, King Khalid University in Abha ،Saudi Arabia.

Cite this article as: Asiri, Ahmed bin Ali Bin Ahmed Al Marya, Criticism of Criticism in the Book of Systematic Criticism of the Arabs by Mohammed Mandour: Presentation and Analysis, Journal of Arts for linguistics & literary Studies, Faculty of Arts, Thamar University, Yemen, V 5, I 2, 2023: 535 -569.

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

المقدمة:

يعد محمد مندور ناقدًا من أبرز النقاد في العصر الحديث، وتكمن قيمة مندور في أنه كان الناقد الذي تبلورت بفضل أطروحاته النقدية كثير من المفاهيم الدقيقة التي حملها الرعيل الأول من النقاد العرب في تاريخنا الحديث[1]، ويعد همزة الوصل بين المجهودات النقدية الغربية والوعي النقدي (العام) الذي كان آنذاك آخذًا في التشكل في عالمنا العربي، إضافة إلى إسهاماته المتعددة في التثقيف والتعليم، ومشاركته في عدد من الحقول المعرفية والثقافية مما يجعله شيئًا أقرب إلى ما يسميه المفكر أنطونيو كرامشي[2] بـ(المثقف العضوي)[3] المرتبط بثقافته ومجتمعه وبيئته أشد الارتباط وأقواه.

ترك محمد مندور إرثًا نقديًا تنظيريًا وتطبيقيًا فيه من الخصوبة والعمق والتنوع ما دفع بعض الباحثين إلى أن يصف تلك المقولات والرؤى التي تركها -رحمه الله- بـ: نظرية مندور النقدية، أو مذهب مندور النقدي[4]. ولغزارة نتاجه وتنوعه وصفت مؤلفاته وبحوثه بأنها "شكلت بحق محورا أساسا من محاور البناء الثقافي في العصر الحديث"[5].

وتهدف الدراسة إلى أن تستجلي تجربة نوعية لدى محمد مندور تتمثل في نقده لعدد من المتون النقدية في التراث العربي، من خلال تناول كتابه: "النقد المنهجي عند العرب". والكتاب في أصله بحثٌ أعد للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة فؤاد الأول بالقاهرة؛ حيث يذكر مندور أن خططه التي صنعها لتثقيف نفسه وبنائها المعرفي والأدبي تعارضت مع الخطط الأكاديمية الرسمية، التي بموجبها يمنح درجة الدكتوراه، وهي المهمة العلمية الرسمية التي ابتعث إلى فرنسا من أجل تحقيقها[6].

ويبدو أنه لم يفلح في التوفيق بين الرغبتين فأعطى نفسه حرية واسعة في الاطلاع على الثقافات الأوربية الحديثة والقديمة، والتنقل بين الدول الأوربية، ومعرفة عادات شعوبها وطرائق تفكيرهم؛ ولمّا جاء أوان عودته اضطر للعودة دون نيل الدرجة العلمية التي ابتعث من أجل الحصول عليها، وهذا أغضب طه حسين وأصابه بخيبة أمل كبيرة؛ لأنه هو الذي تبنى فكرة ابتعاثه إلى فرنسا[7].

وقد حاول أحمد أمين بعد عودته تصحيح الوضع الجامعي لمندور ؛ فاقترح عليه موضوعًا، هو "تيارات النقد العربي في القرن الرابع الهجري"، وكأنما أراد أن يستكمل البحث الذي بدأه قبل سنوات قليلة الأستاذ طه أحمد إبراهيم، ونشر بعد وفاته، بعنوان: "تاريخ النقد الأدبي عند العرب- 1937م"؛

بإشراف ومتابعة الأستاذ أحمد الشايب، الذي ذكر في تمهيده للكتاب سبق الأستاذ أحمد أمين إلى الاهتمام بالدرس النقدي في الجامعة[8].

فقام مندور بتسجيله في جامعة الملك فؤاد (جامعة القاهرة الآن)، وتولى الأستاذ القدير أحمد أمين إجراءات التسجيل والإشراف على البحث، ليتفرغ مندور للعمل الجاد فانتهى من كتابة الرسالة في مدة تسعة أشهر من عام 1943م، ثم طبعت بعنوان " النقد المنهجي عند العرب" وصدرت الطبعة الأولى في عام 1943م[9]. فالكتاب إذن معدود في الأطروحات العلمية الأكاديمية.

وجاء اختيار الكتاب للدراسة لأسباب كثيرة توافرت له جعلته جديرا بمزيد من العناية والاهتمام، فهو: أول كتاب ينشئه مؤلفه، وقد جاء في لحظة مهمة لتحسين وضعه الأكاديمي في الجامعة، وكان بمثابة إثبات الذات العلمية والنقدية أمام أستاذه طه حسين، الذي غضب منه أشد الغضب لفشله في الحصول على الدرجة في بعثته كما كان يؤمل، وجاء في مرحلة اتصاله بثقافته وتراثه النقدي والأدبي بعد العودة مباشرة من فرنسا، وتضلعه في كثير من القيم النقدية والأدبية الغربية التي أتيحت له، واطلاعه على الحركتين الأدبية والنقدية ومفاهيمهما الغربية، واتصاله بالبيئة الجامعية في السوربون وأساتيذها[10]، كما يمثل الكتاب ريادة في مجال نقد النقد وفقا لمرحلته الزمنية في مسيرة النقد الأدبي الحديث.

وإذا كان مندور قد حظي بدراسات عديدة تتصل بما يسمى "نظرية مندور النقدية" أو إسهاماته النقدية والتحولات التي شهدتها مسيرته، فإنه لم يحظ بالعناية التي يستحقها في مجال نقد النقد ، حيث تسلط الضوء على تعامل الناقد مع المقولات والنصوص النقدية، لا من حيث إن خطابه خطاب نقدي فحسب! ولكن من جهة أن خطابه النقدي على خطاب نقدي ناجز.

وفي محاولتنا هذه تحاول الدراسة أن تقف على كيفية تعامل الناقد مع النصوص النقدية، وكيف قرأها، وهل استعان في ذلك بمصادر وسيطة، أو قوالب جاهزة من الأحكام والآراء أو توجه للمدونات نفسها؟ هل استعان بقراءات للتراث النقدي من قبل ناقدين آخرين، أو اعتمد على قراءاته ومنطلقاته النقدية؟ وكيف كان موقفه من المدونة التراثية ونتاج النقاد العرب؟ وما موقفه من الجديد في مجال الوعي النظري والمنهجي الذي اتصل به في فرنسا؟ وما المنهج الذي استعمله تجاه

تحليل القول النقدي وتصنيفه؟ وهل كان يصدر عن المنهج التاريخي بالكلية أو أنه كان يباشر النصوص النقدية ويحاورها ويناقشها؟ وهل قرض مناهج نقدية في قراءته تتنافى مع الحضارة العربية وقيمها الفنية والنقدية؟

ولمحاولة تحقيق الإجابة على تلك الأسئلة بنيت الدراسة على مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ثم قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها أو أفدنا منها.

في المقدمة: عرضنا الموضوع وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وفي التمهيد: تناولت بعض المفاهيم المهمة حول مصطلح نقد النقد، وعلاقة الكتاب بمجاله المعرفي. وتناولت في المبحث الأول أهمية الكتاب ومنهجه، وفي الثاني: وقفت الدراسة على نقد المؤلف للمتون النقدية التراثية، وسجلت نقاشه وملاحظاته بما يكشف عن المنهج الذي يقرأ من خلاله التراث، وفي المبحث الثالث كشفت الدراسة عن منطلقات القارئ ومفاهيم القراءة؛ من خلال الوقوف على تصور الكتاب لكل من: الأدب والنقد، والمسارات النقدية والمصطلحات الإجرائية، والعلاقة بالآخر (اليونان- الغرب)، والأسس النقدية التي أثرت في الناقد وفي قراءته، وفي الخاتمة وقفة مكثفة على أهم النتائج.

أخيرا لا يمكننا أن نغفل التقدير لعدد من الدراسات التي اعتمدنا عليها أثناء إنجاز لدراسة، ونحيل إليها القارئ كما وردت ضمن قائمة المراجع بآخر البحث، ولكن نرى أهمية أن ننبه إلى أبرزها هنا، وهي على النحو الآتي:

- محمد مندور.. وتنظير النقد العربي، لمحمد برادة، منشورات دار الآداب، بيروت .لبنان، ط 1، 1979م. وهي دراسة رائدة تمكنت من قراءة التطورات الفكرية لمندور، وما تبعها من تَغَيُّر طرأ على المنهج النقدي لديه، وقد قرر أن مندورًا[11]: لا يمكن موضعته، أو فهم أعماله بدون اعتبار المرحلة التاريخية المتأججة التي عاشتها مصر من سنة 1940م إلى 1965م، أي: طيلة سنوات الفاعلية في حياة مندور.
- المنهج النقدي للدكتور مندور (مقالة): إبراهيم حمادة، مجلة الجديد، عدد: 8، السنة الأولى، 15/ مايو/ 1972م. وهي مقالة نقدية موجزة تضمنت آراء أفادت منها الدراسة.
- تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، للباحث فاروق العمراني، ولعلها من أهم الدراسات لنتاج مندور وتطور تفكيره النقدي، وقد صدرت في عام 1988م، عن الدار العربية للكتاب، طرابلس- تونس، في 242 صفحة من القطع المتوسط(1988م).

- النزعة الجمالية الإنسانية في نظرية محمد مندور النقدية، دراسة قيمة للباحث فاروق العمراني، نشرت في مجلة فصول النقدية، مجلد 9، العدد: 3 و4، فبراير 1991م، وهي تهتم بالمرحلة الزمنية التي كتب فيها مندور كتابه.
- الأصول الفنية للتذوق البلاغي عند محمد مندور، دراسة للباحث سامي منير عامر، نشرت في مجلة كلية التربية بجامعة صنعاء، ونشرت في العدد الأول، من عام 1405هـ_ 1984م.
- المنهج النقدي عند محمد مندور، دراسة محمد بالحاج الغزي، نشرت في المجلة العربية للثقافة، العدد: 24، السنة: 13، رمضان 1413هـ_ مارس 1993م.

التمهيد:

إذا كان خطاب النقد الأدبي يتوجه إلى تفسير وتأويل وتقييم النصوص الأدبية، فإن خطاب نقد النقد يبدأ من حيث انتهى خطاب النقد، فيضع هذا الخطاب في موضع المساءلة والفحص، فـ"الحصيلة التي يتشخص فيها مشروع (نقد النقد)...يطبعها فعل (التحقيق) الذي ينصب على النقد الأدبي، أو على آليات هذا النقد الأدبي، والمعرفة التي تتيح التفكير في الأدب والنقد معًا،.. إنه بناء معرفي إجرائي وظيفي يعمل باستراتيجية واحدة، وينتج معرفة تصب في مجرى المنهجيات... للوصول إلى تدعيم الممارسة النقدية، أو كشف الخلل فيها، أو تحديد تشغيل المفاهيم النقدية في ممارسة ما، أو تجديد تشغيل الإجراءات في ممارسة منهج ما، أو فحص النظريات النقدية والأدبية بما هي بناءات معرفية...وهذا يستدعي حركة وتساؤلا عن إشكالات نقدية، وحركة علمية تعطي إمكانات الجواب، وسياقا ثقافيا يربط الحركة النقدية والعلمية، ويبرر الحاجة إلى نقد النقد"[12]. ويقتضي نقد النقد- بحسب مقترح ناتالي جوهانا- عددًا من المراحل، هي: فحص الأهداف، ووصف المتن، والتحليل، والتنظيم، والتفسير.[13] ويسعى هذا البحث الذي يتنزل في (نقد النقد) إلى دراسة النقد المنهجي عند العرب، في ضوء هذه المحددات والمراحل، دون الالتزام الحرفي بها، وبحسب المحاور الآتية:

المبحث الأول: الكتاب: الهدف، المنهج، المرجعية

يهدف الكتاب كما هو واضح من مقدمة الكتاب إلى تقديم تحليل نقدي للنقد المنهجي عند العرب ومن ثم فهو نقد على نقد وإن لم يعلن عن ذلك، شأنه شأن الرعيل الأول من النقاد العرب من مثل طه أحمد إبراهيم وإحسان عباس فيما كتباه عن تاريخ النقد الأدبي عند العرب، لا يصنفون كتبهم ضمن هذا النوع من الدراسات، بل يجعلونه تابعًا للنقد الأدبي أكثر من كونه ذا طبيعة خاصة

مميزة بالنظر إلى مجال اشتغاله. غير أن قراءة مندور للتراث النقدي العربي يجعل الكتاب مندرجًا ضمن نقد النقد بما هو نشاط معرفي يجعل من النصوص النقدية مدارا لاشتغاله، وينصرف إلى مراجعة الأقوال النقدية، والكشف عن مبادئها النظرية وأدواتها وإجراءاتها. حيث وجه اهتمامه المباشر إلى الممارسات والمقولات النقدية لهذه المدونات وليس للإبداع الذي كان محل اشتغال هذه النصوص النقدية الأولى، كما لم يفتنه الدرس التاريخي عن مباشره المقولات والنقود نفسها، وكان ذلك واضحا في ذهنية الدراسة منذ الصفحات الأولى من الكتاب، وفي معالجته بعد ذلك- كما سيأتي بيانه.

ويمكن القول: إن وراء هذا الهدف المعلن هدفا مسكوتا يتجلى عند النظر في السياق التاريخي الذي صاحب إنجاز مشروع مندور، وهو محاولة إثبات الذات أمام أستاذه الناقد طه حسين الذي اتهمه بالفشل والعجز عن إتمام الدكتوراه، وغضب عليه غضبا شديدا حين عاد دون شهادة الدكتوراه من المنحة التي سعى له طه حسين بها بوصفه التلميذ النابه الذي توسم فيه النبوغ.

فأراد أن يقدم أطروحة يوظف فيها كل المعارف والرؤى المنهجية المستقاة من الثقافة الغربية في تسليط الضوء على ما لدى العرب من نقد منهجي. محاولا أن يكون له بصمة منهجية في فهم التراث النقدي كما كان لأستاذه طه حسين تلك البصمة النقدية في إعادة النظر في الشعر الجاهلي نتيجة للمرجعية المنهجية التي استقاها من النقد الفرنسي والمستشرقين وكان لها صدى في الوسط الأكاديمي والثقافي.

ولكون النظر النقدي في كتاب " النقد المنهجي عند العرب " يرتكز على رؤية (منهجية) فقد عده بعض الباحثين[14]: قراءة جديدة للتراث النقدي بعين غربية إنسانية ذوقية، استمدها مندور مما خلفته في نفسه ثقافته الفرنسية، متمثلة في نظريات كل من (لانسون) و(ماييه)، وليس مجرد تاريخ للنقد العربي وتياراته. يؤكد هذه الحقيقة حرص مندور على إلحاق دراستين مهمتين لكل من (لانسون) و(ماييه) الأولى بعنوان "منهج البحث في تاريخ الآداب "، والثانية بعنوان " منهج البحث في اللغة والأدب/ علم اللسان " كان ترجمهما إلى العربية فور عودته من فرنسا إلى مصر، وصدرت أول الأمر مستقلة في كتاب عن دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، 1946م، ألحقهما بكتابه (النقد المنهجي عند العرب) في طبعته الثانية [15].

وفي هذا الإلحاق إشارة أخرى إلى طه حسين وإن حاول مندور أن يعلل لذلك بأسباب شكلية

وموضوعية جوهرية؛ فالأولى: تتصل بتوزيع الكتاب، وصعوبة الحصول عليه في مصر، وبنفاد الطبعة الأولى، وحرصه على أن يكون في متناول أيدي الباحثين والطلاب، أما الأسباب الموضوعية والجوهرية -وهي ما يعنينا هنا لصلتها بخصوصية قراءة التراث النقدي التي يتبناها الكتاب- فتعود إلى طبيعة فكره القائمة على ما وصفه بـ"المنهج"، والإفادة مما لدى "الغير" فيما نحتاج إليه، يقول محمد مندور[16]: "أما الأسباب الموضوعية الجوهرية فترجع إلى اعتقادي الراسخ بضرورة استفادتنا من تجارب الغير، ومن التقدم المنهجي الكبير الذي أحرزه الباحثون في مجال الأدب واللغة، وعندي أن أسباب هذه الاستفادة لن تكون صحيحة وسليمة وعميقة واعية إلا بعد دراسة تراثنا العربي القديم في الأدب والنقد وعلوم البلاغة المختلفة حتى تقوم استفادتنا على أساس من المعرفة بنواحي تلك الاستفادة استكمالًا لما ينقصنا. والجمع بين كتاب (النقد المنهجي عند العرب) و(منهج البحث في اللغة والأدب)، أرجو أن يحقق ما هدفت إليه، وما أوضحته في الأسطر السابقة ".

ولعل ما يؤكد المسكوت عنه وراء إنجاز مندور(النقد المنهجي عند العرب) حديث مندور عن نفسه[17] بأنه لما عاد إلى أرض مصر سنة 1939م كانت نفسه قد تشبعت بقراءات طويلة للآداب اليونانية واللاتينية القديمة، واتصل بالحركة النقدية وأعلامها في فرنسا سواء منها العامة أو الجامعية [18]، لعل في هذا تعريضا بطه حسين الذي عرف عنه اطلاعه على الآداب اليونانية واستيعابه المناهج الفرنسية التي كانت معرفة في أثناء دراسته لي السوربون ، وإلماحا إلى أنه مثله في الجوهر وإن عاد من باريس دون دكتوراه فإن ما عاد به من وعي وهو الأهم كفيل بتجسيد الطموح الذي علقه طه حسين على مندور إن سافر إلى فرنسا لدراسة الدكتوراه.

بل إنه قد اتجه مباشرة إلى النزعة الجمالية المتمثلة في الأدب وتذوقه، ولم يحفل كثيرا بما كان سائدا من معطيات نقدية كرستها اتجاهات نقدية سابقة في المجتمع الأدبي بمصر، مثل: الاتجاه النفسي الذي يمثله العقاد، والاتجاه التعبيري الذي يمثله المازني ونعيمة، والاتجاه الاجتماعي الذي يمثله أستاذه طه حسين، بل اتصف المدخل النظري لدى مندور، وما تبعه من توظيف منهجي بقيامه على معطيات الفكر النقدي التَّأثري؛ في المرحلة الأولى الممتدة من زمن عودته إلى أرض مصر عام 1939م إلى أواخر الأربعينيات.

جاءت معطيات التَّأثرية بمثابة الاستدراك الفني على التعبيرية، التي أولت الشكل والجمال والحواس كل قيمة في التعامل مع العمل الأدبي؛ حيث اعتبرت الفن ليس كل ما يثير الحواس

والتجربة الجمالية فحسب، بل لا بد من أن يستطيع الفن أن يمتد إلى الذوق ويحدث التعاطف/ التفاعل. والقراءة هي وسيلة إحداث (اللَّذة) وليس في الإمكان إصدار حكم أفضل من الشعور بـ(اللذة) [19].

فالمنهج التأثري . إذن . يقوم على تحكيم الذوق، ويعده " المرجع النهائي في كل نقد " - بحسب عبارة مندور في كتابه النقد المنهجي عند العرب، كما يتطلب - من جهة ثانية - الاحتكاك المباشر بالعملية الفنية؛ لإدراك مواطن الجمال والإبداع فيها[20]. إن التأثر لا يمكن أن ينزع من عملية التلقي الأدبية فلماذا نحتد في مصادرته في النقد؟! ولماذا لا نعاود تقنينه لضبطه مادامت هذه طبيعة الفنون؟! كما يقول موافقًا أستاذه لانسون[21].

وهنا ندرك أهمية حضور (الآخر) في الوعي النقدي لدى مندور، من خلال تأثره بالمعطيات الغربية في هذا الاتجاه. الذي انعكس على أثره الواضح على كتابه، وفي تقديره للمنجز النقدي التراثي من جهة، ووقوفه – من جهة أخرى- بتسامح كبير مع الآخر كما سنجد في غضون هذه المقاربة المعنية مباشرة بالكتاب موضع الدراسة.

المرجعية المنهجية:

يقف وراء هذا الاشتغال النقدي في كتاب مندور مرجعيات متعددة، تشكلت جذورها منذ أن التقى بأستاذه طه حسين في الجامعة المصرية عام 1925م، حيث كان طه حسين . كما يذكر غالي شكري [22] . أول من صاغ نقطة التحول الحقيقي في نظرة مندور للأدب والنقد؛ وذلك عندما نبه إلى أهمية المناهج الغربية في دراسة الأدب وتذوقه، وبخاصة المنهج الفرنسي، وربما سمع لأول مرة في محاضرات طه حسين عن (سانت بيف SANITE BEUVE)، و(تين TAINE)، و(برونتيير BRUNETIERE)، كما تعرف في الجامعة على الأساتيذ الأجانب، مثل: الإيطالي (نللينو) الذي درس عليه تاريخ اليمن، والإيطالي (جوبتري الصغير) الذي درس على يديه فقه اللغة وعلم الإنسان، والألماني (ليتمان) الذي وقف بمعيته على تاريخ الشرق الأوسط والقديم.

- وخارج أسوار الجامعة قرأ في الفترة نفسها عن (لسنج) وكتابه الشهير " لاوكون " في كتاب المازني الشهير أيضًا "حصاد الهشيم "؛ حيث أراد أن يطبق منهج " ليسنج " على الشاعر ابن الرومي [23]. هذه الفترة كانت بمثابة التكوين الأولي ل مندور التي هيئته لهذا الاتجاه.

- أما تلك اللغة المحاججة وأسلوب المرافعة النقدية التي كان يجريها في إثبات توافر القاضي الجرجاني والآمدي على النقد المنهجي فتعود إلى مكون معرفي تحصل عليه مندور من اختصاص القانون؛ إذ يشير مندور[24] إلى مسألة أخرى ذات أثر في إدراكه للفروق اللغوية بين العبارات مما لا يجعل الألفاظ تبدو لديه مترادفات، بل لكل منها معنى خاص وقيمة خاصة، وهو تخصصه في القانون.
- أما مرحلة التكوين الحقيقية لهذا الميل المنهجي فيرجعها مندور نفسه إلى رحلته العلمية إلى أوروبا للدراسة في جامعة السوربون الفرنسية، والتحضير لدرجة الدكتوراه في الأدب، وهي فترة طويلة بلغت تسع سنوات من سنة 1930م إلى 1939م؛ حيث تمكن من الاطلاع عن قرب على الثقافة الغربية والفرنسية خاصة، وقد مكنته قراءاته الواسعة، واهتماماته المتعددة التي لم تقتصر على الأدب والنقد من أن يتعرف على كثير من المقولات الفلسفية والإنسانية في فرنسا بلد النظريات كما يحلو للبعض أن يصفه.
- ويرى فاروق العمراني[25] أن مندورًا شغف بالتراث اليوناني الذي كان يبشر به أستاذه طه حسين في الجامعة المصرية؛ وأن انفتاح مندور على التراث اليوناني العظيم يعدّ مصدرًا أساسيًا من مصادر جمالياته النقدية. ومن أبرز ما درسه مندور في فرنسا (فقه اللغة) و(علم الأصوات)، واطلع على أبحاث عالم اللغة الفرنسي المشهور " أنطوان مييه "، ودرس نظريات اللساني الكبير " فيرديناند دي سوسير "
- . كما تأثر مندور بمنهج الدراسة الأدبية في جامعة السوربون، وهو يقوم ذلك المنهج على شرح النصوص وتفسيرها، فكان الأساتذة يفسرون نصوصًا منتقاة لأعلام الأدب في عصوره المتتابعة، وحول كل نص كانت تتبلور دراسة الكاتب كله، وأسلوبه الخاص، ووجهة نظره في الحياة، مع المقارنة بخصائص الكتاب الآخرين[26].
- وقد كانت بصمات (لانسون) منطبعة أشد ما يكون على نتاج ومشاركات مندور عند عودته إلى مصر لاسيما في المجال النقدي؛ ولهذا كانت الجامعة الفرنسية، وما يطبق فيها من مناهج معرفية . بحق . أساس التكوين الحقيقي للنزعة الجمالية /الذوقية التي غلبت على مندور في الفترة التي أعقبت عودته إلى مصر 1939م وإلى عام 1949م وهي المرحلة التي كتب فيها أطروحته للدكتوراه المتمثلة في هذا الكتاب الذي نعتني به هنا.

المبحث الثاني: المتن المدروس

يقرر مندور ويؤكد أن الفكرة الرئيسية التي يقوم عليها كتابه، هي معالجة النقد المنهجي عند العرب [27]. وقد وضح مفهوم مصطلح " النقد المنهجي " لديه؛ فقال في تقديمه للكتاب:[28] " الذي نقصده بعبارة النقد المنهجي، هو: ذلك النقد الذي يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة، يتناول بالدرس مدارس أدبية أو شعراء أو خصومات، يفصل القول فيها ويبسط عناصرها ويبصر بمواضع الجمال والقبح فيها ".

وقد اتخذ مندور كلًا من أبي القاسم الحسن بن أبي بشر بن يحيى الآمدي، صاحب كتاب (الموازنة بين الطائيين) والقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي إسماعيل الجرجاني، صاحب كتاب (الوساطة) مركزًا لكتابه؛ لأن نقديهما كان نقدًا منهجيًا وفق المفهوم الذي قدمه للمنهج. هذان الناقدان هما اللذان استطاعا أن يقيما نقديهما على إدراك للمعاني الإنسانية، وإحساس دقيق بنزعات النفوس، وعلى وسائل ذوقية مصقولة بالدربة، ووسائل معرفية، ومقاييس لغوية وشعرية وبيانية وإنسانية[29].

ولكنه مع هذا تناول المرحلة النقدية التي تسبق هذين الناقدين، كاشفًا آثارها النقدية، ومتتبعًا موضوع النقد المنهجي منذ أول كتاب وصل إلينا في النقد وتاريخ الأدب، وهو كتاب: (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي في القرن الثالث الهجري، مؤكدًا على أن النقد العربي فيما قبل القرن الثالث نقد ذوقي يقوم على إحساس فني صادق، ولكن هذا النقد الذوقي يعيبه أمران:

أولهما: عدم وجود منهج، وهذا أمر طبيعي في حالة البدواة التي كانت تسيطر على العرب، فالرجل الفطري يستطيع أن يبدع أجمل الشعر، ولكنه ليس في حاجة إلى عقل ناضج يرى جوانب الأشياء كلها، ولا يحكم إلا عن استقصاء. لكن النقد المنهجي بحاجة إلى رجل نما تفكيره فاستطاع أن يخضع ذوقه لنظر العقل، وهذا ما لم يكن للقدماء، ومن ثَمَّ جاءت أحكامهم جزئية مسرفة في التعميم.

وثانيهما: عدم التعليل والتفصيل، وهذا شرط لم يكن من الممكن أن يتوفر للعرب، فالتعليل والتفصيل أمران لا يطيقهما إلا تفكير مكون، مستند إلى مبادئ عامة، تعتمد على معارف وعلوم، والعرب بدو لم يكن لهم آنذاك شيء من العلوم والمعارف. وطبيعي إذن أن تأتي أحكامهم النقدية أقرب إلى الإحساس الخالص منها إلى النقد الذي يعتمد على الذوق والمعرفة معًا[30].

وحين وقف عند ابن سلام الجمحي لم يشغله سوى إشارات (منهجية) نثرها ابن سلام في (طبقاته)، لاحظها واستنطقها مندور، وعلى الرغم من هذا فإن جهود ابن سلا م في النقد تتضاءل في ناظري مندور؛ لأن بعض تفسيراته غير دقيقة [31]، ولتقديمه الكم على الكيف [32]، ولأنه لا يفصل في الأحكام ولا يحلل الشعر ولا ينقده، ولأن أحكامه في غالبها هي الأحكام التي كانت تتداول على الألسن[33].

وهذا يعني ـ بعبارة أخرى ـ أن ابن سلام الجمحي لا يحتك مع النص ـ كما يشترط المبدأ النقدي الذي يصدر عنه مندور في قياس جهود الأسلاف النقدية ـ ولا يحتكم إلى أسس نقدية وذوقية حقيقية يوظفها الناقد في تعامله مع الأدب. وابن قتيبة أيضًا لم يفلح في أن يكون ناقدًا - بالمعنى الذي يفهمه مندور[34] - لأنه ـ لسوء الحظ ـ لم يتوافر لديه " الذوق الأدبي والحكم المستقل"[35]، ولم يتزود بمقاييس ثابتة يتكئ عليها في الحكم على الشعر، ولأنه لم ينقد النصوص نقدًا موضوعيًا تحليليًا، ولم يدرسها ويميز بين أساليبها كما فعل الآمدي في موازنته بين البحتري وأبي تمام، وإنما أورد في كتابه أخبارًا وقصصًا عن الشعراء، وروى بعضًا من أشعارهم دون مناقشة ولا حكم إلا أن يكون حكمًا تقليديًا يرويه عن الغير لا فضل له فيه. وهو يلتمس مع ذلك بعض العذر لابن قتيبة حين يوافقه على رفضه لمذهب الفلاسفة في النقد وإقحامهم المنطق الشكلي في فهم اللغة وتذوقها، وحين شهد له بالروح العلمية في دعوته (ابن قتيبة) إلى تقدير الأشياء في ذاتها، ورفضه تفضيل القديم لقدمه، أو الحط من الحديث لحداثته[36]. ولكنه عند مندور -دون شك - دون ابن سلام في ذوقه ومنهج تأليفه[37].

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ناقدَين آخرَين عُنيا في نقديهما بدراسة ظاهرة (البديع)، وهما ابن المعتز وقدامة بن جعفر، ويكشف عن منحى ابن المعتز في تناول ظاهرة البديع في كتابه المسمى بالاسم ذاته، فرصد أقسامها، ووضع المصطلحات لها، وتحديد خصائصها، كان من أكبر الأسباب التي مكنت الخصومة بين أنصار القديم والحديث إذ أصبحت مبادئ المذهب معروفة محددة، وأن الناظر في موازنة الآمدي أو في أخبار أبي تمام للصولي، أو في الوساطة للجرجاني، أو في غيرها من كتب الأدب، يجد أن ابن المعتز قد أثر على هؤلاء جميعاً، ولو لم يكن له من فضل غير تحديد الإصطلاحات لكفاه. لكن تحديده لخصائص مذهب البديع، ووضعه اصطلاحات لتلك الخصائص، وأخذ من بعده عنه لا

يجعل مندورا يحكم له بأنه قد تناول نقد الشعر نقدا موضوعيّا إنما قصد إلى إيضاح مبادئ ووضع تقسيمات، ومن ثَمّ فهو ساعد على خلق النقد المنهجي[38]، وإن لم يهتد إليه.

أما عقلية قدامة فشكلية صرفة؛ فهو لا يبدأ بالنظر في الشعر، بل يكوّن أولًا هيكلًا لدراسته، ويحدد تقاسيمه قبل أن ينظر إليه أو يحتك به، أو إن شئت فقل: إنه يصنع قطعة أثاث هندسية التركيب، ثم يأخذ في ملء أدراجها[39]، ولهذا كان الذين أخذوا عنه هم علماء البلاغة ومن يندرج معهم في القرون التالية، وليسوا النقاد. كالآمدي والجرجاني، وظلت محاولته شكلية عقيمة ولم تدخل يوما ما في تيار النقد العربي[40].

أما الناقدان اللذان وقف معهما فأطال الوقوف فهما (الحسن بن بشر الآمدي) و(على بن عبد العزيز الجرجاني) فقد خصهما بدراسة موسعة، مهد لها بدراسة قضية (الخصومة) بين القدماء والمحدثين، التي كانت موضع اهتمام كبار نقاد القرن الرابع، ومن بينهم (الآمدي) و(الجرجاني)؛ حيث يجعلها سببا لإيضاح موقفه النقدي، ولذلك يقف للمقارنة بينهما وبين أبي بكر الصولي صاحب كتاب "أخبار أبي تمام" ليوضح الفرق بينهما وبينه؛ فليس في كتاب الصولي ما يدل على انحيازه للشعر الحديث عن ذوق فني خاص، وينتهي إلى تقرير حقيقة يؤمن بها عن النقد العربي تعيّن مكان ناقدينا (الآمدي) و(الجرجاني)؛ يقول: "وفي الحقّ إن النقد العربي لم يخلف غير كتابي "الموازنة" و"الوساطة"، ففيهما نجد النقد بأدق معاني الكلمة؛ إذ يتناول الكتاب الأول شعر أبي تمام وشعر البحتري ينقدهما نقدا دقيقًا مفصلًا: نقدًا منهجيًّا، كما يتناول الثاني المتنبي بالنظر في شعره وتفصيل ما له من فضل، والرد على خصومه أو التماس الأعذار له"[41].

ويستهل دراسته لهذين الناقدين بـ(الآمدي) فيتناول منهجه وثقافته وعلاقته بالنقاد السابقين عليه من خلال كتابه (الموازنة بين الطائيين)، مؤكدًا أن منهج الآمدي في هذا الكتاب يتسم بالموضوعية وعدم التعصب لفريق ضد آخر. ويدفعه هذا إلى دراسة قضية التعصب، لأنها من أكبر المزالق التي تودي بصدق الأحكام النقدية، وتجعلها تميل مع أو ضد. ويرى أن الآمدي لم يكن صاحب هوى ولا متعصبًا، ولكنه يجد في منحى البحتري الشعري هوى في نفسه يتفق ومزاجه الفني. وهنا يلتمس له العذر لأن ميله هذا ميل (فني) إذ هو ذوق مدرب مصقول، وإنما يأتي خطر تحكيم الذوق حين يكون ستارا للهوى، أو حين يكون الذوق غفلًا لم تجتمع له الدربة والطبع.

ويثني مندور على المنهج العلمي الذي اتبعه الآمدي في موازنته، ويراه خير مثال يحتذى للمنهج الصحيح، وهو أشبه بمناهجنا العلمية اليوم، لأنه عمد إلى التثبت من صحة النصوص وتحقيقها[42]، وقراءة ما سبق من أحكام للمتقدمين والمحاجة بين الفريقين[43]، وعرض موضوعه عرضا منطقيا سليمًا[44]، فبدأ بالمآخذ على الشاعرين ثم الحسنات عندهما وانتهى إلى الموازنة التفصيلية بينهما[45].

وبيّن مندور أن الآمدي قد عمد إلى استخدام أسلوب النقد الموضعي، باشر من خلاله النصوص نفسها وحكم عليها أو لها. كما أعمل أسلوبين لتفسير النصوص والحكم عليها، وتعليل هذه الأحكام: الأسلوب الأول هو: المعرفة أو بما اصطلح عليه ب"المعلومات"، وأبرز أدواته في ذلك: اللغة، أما الأسلوب الثاني فهو "الذوق الأدبي" والطبع المدرب المصقول بالشعر[46].

وينتقل بعد ذلك إلى علي بن عبد العزيز الجرجاني وكتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه، وقبل الحديث عنه يمهد لذلك بدراسة الخصومة حول المتنبي، مشيرًا إلى أن الخصومة لم تتوقف في تاريخنا الأدبي وإنما ظهرت خصومة جديدة حول المتنبي، وأن هذه الخصومة لم تكن حول مذهب أو طريقة إنما كانت حول شاعر له خصومه، وقد انقسموا في خصومته إلى فريقين: فريق لا ينتصر إلا للقديم ويرفض كل محدث، وفريق خاصم المتنبي لشخصه لما كان يتمتع به من حظوة عند سيف الدولة[47]، مستهدفا من وراء ذلك الكشف عن الجوانب الفنية والشخصية في هذه الخصومة، ومتتبعًا مراحلها وبيئاتها في الشام ومصر والعراق وفارس[48]. فأما كتاب (الوساطة) فقد ألفه الجرجاني حتي يقف موقفًا وسطًا بين المتنبي وخصومه، وقد بدأ مندور فتناول سيرة الجرجاني، ووضح ما تميز به من: روح علمية تمثلت فيما أسماه: روح القضاء، وحذر العلماء، ولغة الفقه في نقده[49].

ثم ناقش منهج الجرجاني في كتابه، ووصفه بـ " قياس الأشباه والنظائر". ويتمثل بإيجاز شديد في: أن الجرجاني يسلم بأن المتنبي شاعر له حسنات، وله سيئات كأي شاعر قديم أو محدث، لذا يحقق وساطته بعرض أخطاء المتنبي وما يناظرها من أخطاء القدماء والمحدثين، الذين اعترف بشاعريتهم[50].

ويلاحظ أن الجرجاني يستحضر مقياس المعرفة أيضًا، ومقياس الذوق، ولكن ذوقه أقل كفاءة من ذوق الآمدي وإن مال معه إلى الشعر المطبوع؛ لذلك لم تغن عنه المعرفة من الوقوع في خطأ الحكم لما نزل إلى ساحة التطبيق؛ لتأخر الذوق لديه قليلًا[51].

أما جماع المقاييس لديه فهو أنه ناقد إنساني "وهذا اتجاه نفسي في النقد قل أن تجد له مثيلًا عند النقاد الآخرين" - على حد تعبيره[52]. وعلى كل حال فإن مندورا يضع الجرجاني بعد الآمدي، مع تأكيده أنهما معا يمثلان ما سماه هو بـ" النقد المنهجي "، ويعلل لهذا الحكم بثلاثة أسباب، هي[53]:

- أن معظم آرائه عن الحقائق الأدبية قد سبقه إليها صاحب الموازنة، وأن الجرجاني قد تأثر بالآمدي تأثرًا قويًّا.
- ثم إن الآمدي قد كتب كتابه كله في النقد الموضعي الدقيق المفصل.
- ولأن الجرجاني كان يميل للمنطق والقياس أكثر من تحكيم الذوق والحس الفني، وصاحب الموازنة أبعد الناس عن هذا الاتجاه.

وهكذا يتحكم النقد المنهجي كما يتصوره مندور في منازل النقاد وطبقاتهم، وتحديد فاعليتهم، وجزء كبير من هذا العمل موكول لديه بانطباع أو ذوق مندور نفسه أيضًا، يقول مندور[54]: "ولما كنا في مجال الأدب فلا مفر من أن نفصل في الكثير من الخصومات والمجادلات والمناقشات برأينا الخاص، الذي يستند ... إلى الطريقة الخاصة لكل باحث في تذوق الأدب ...". أما الصفات التي يكبرها مندور في الجرجاني، والتي ترتفع به إلى مقام الناقد المنهجي؛ فهي -كما أسلفنا - صفات العلماء التي تتميز بالتواضع والحذر والنزاهة، وعدم التحيز والعدل، وتلك صفات تعظم بها قيمة كل نقد صحيح[55].

وبعد هذه الوقفة النقدية التحليلية مع الجرجاني ووساطته التي استغرقت نحوا من 144 صفحة يولي الثعالبي وكتابه (يتيمة الدهر) عنايته، لأن صاحب اليتيمة جمع في فصل طويل طائفة من أخبار المتنبي وما أخذ على شعره من مآخذ أو رئي فيه من محاسن، وعنايته بهذا الفصل "لأنه يمثل الرأي الوسط في شعر المتنبي، وينقل إلينا مختصرا لما ثار حوله من انتقادات"[56].

وهو إذ يصف رأي الثعالبي في الفصل بالرأي الوسط فإنه لا يتردد في وصفه بالضعف: "والثعالبي رجل ضعيف الشخصية، حتى لنكاد نجزم بأنه لا رأي له في شيء"[57]. ويُرجع وسطية رأيه

في الخصومة لتخيره من انتقادات السابقين كالصاحب والحاتمي وآراء الجرجاني وغيرهم ونظمها؛ فالفضل في ذلك ليس له! بل يشبهه في ذلك بالفرّاء الذي يخيط آراء غيره بعضها إلى بعض، لأنه يعد ناقلا للآراء لا ناقدا ولا مؤلفًا؛ مقتفيًا ما قيل في اسمه إنه نسب إلى خياطة الجلود؛ لأنه كان يعمل فراء[58].

لكنه على الرغم من ذلك قد جعل الثعالبي خاتمة النقد المنهجي عند العرب، قبل طغيان روح العلم! الذي حول النقد إلى بلاغة، وأعاده إلى منهج قدامة العقلي العقيم- على حد قوله- وكان في ذلك الكارثة التي لم تقف أضرارها عند حدّ، والتي أتلفت الذوق الأدبي، وأماتت الأدب إلى أيامنا هذه[59].

وكان من المفترض أن يقف كتاب مندور عند هذا الحد، ولكنه مده قليلا إلى القرن الخامس، فوقف عند أبي هلال العسكري في كتابه (الصناعتين) وصنّفه ضمن كتب البلاغة وليس كتب الأدب والنقد! وجعله نقطة تحول النقد إلى بلاغة[60]، ويعلل لذلك بأن النقد يدرس ما قيل فعلا بينما البلاغة تضع قواعد تحاول أن تخضع لها الشعراء[61].

وقبيل أن ينتهي القرن الخامس يظهر مفكر نحوي عظيم الخطر – كما يصفه مندور- وهو عبد القاهر الجرجاني[62]، كان سليم الذوق فقاوم تيار اللفظية أشد مقاومة، وقال بأن الألفاظ خدم المعاني، وأنزل البديع الذي تعلق به اللفظيون في منزلته الصحيحة ؛حين جعل المعنى سبب القبول من عدمه، فحين يتطلب السجع أو الجناس أو غيرهما من البديع فقد أصاب مكانه من الحسن والجمال.

ويشهد له بأنه قد اهتدى في العلوم اللغوية إلى مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير، وعلى أساس هذا المذهب كوّن مبادئه في إدراك (دلائل الإعجاز)، ويصف مذهبه بأنه أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا في أيامه، وهو مذهب العالم السويسري فرديناند دي سوسير، ويهمه في ذلك استخدامه كأساس لمنهج لغوي "فيولوجي" في نقد النصوص؛ حيث فطن إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات، وكان مقياس النقد عنده هو "نظم الكلام" ، وهو لا يغفل قيمة الذوق ويرى أهمية تحكيمه. ولذلك يدعو مندور إلى ضرورة الأخذ بهذا المنهج؛ لأنه خليق بتجديد فهم التراث، كما حدث في أوروبا مع منهج العالم الغوي دي سوسير[63].

ويخلص مندور من هذه القراءة لمجمل المدونة النقدية في القرن الرابع وما بعده إلى أن لنا تراثا عظيما؛ لأننا نملك في النقد المنهجي كتابين كالموازنة والوساطة، وفي المنهج اللغوي كتابا كدلائل الإعجاز فيه أدق نقد موضوعي تطبيقي وأعمقه[64].

ثم وقف عند ثلاث قضايا كبيرة، أثارها النقاد في التراث العربي، وبخاصة كل من الآمدي والجرجاني، وهي: الموازنات الأدبية[65]، والسرقات[66]، والمقاييس النقدية العامة بين الناقدين، وحددها في خمسة مقاييس تشكل صورة من عمل النقد المنهجي[67]، هي:

- مقاييس شعرية تقليدية.
- مقاييس لغوية.
- مقاييس بيانية.
- مقاييس إنسانية.
- مقاييس عقلية.

ويبين سبب هذا الوقوف الطويل في الجزء الثاني من الكتاب، لأن دراسة هذه المقاييس تقف على الموضوعات والموازين التي وظفها هؤلاء النقاد، يقول:

"استعرضنا تاريخ نشأة النقد المنهجي عند العرب ووصلنا به إلى أن تحول إلى بلاغة أو فقه لغوي، وإنه وإن يكن بحثنا بحثا نقصد منه إلى تعرف أصول ذلك النشاط الأدبي وكيفية تكونه مرحلة بعد أخرى، إلا أننا نرى من موجبات الاستقصاء أن ننظر في الموضوعات التي تناولها ذلك النقد، وفي المقاييس التي أخذ بها، لنرى النتائج النهائية التي وصلوا إليها، ثم نناقش تلك النتائج فنقدر ما كان لها من أثر على مصائر الأدب العربي، وما بقي لها من قيمة حتى يومنا هذا"[68]. "والذي نحرص على إيضاحه هو أننا عندما نحاول أن ندرس النقد العربي دراسة تقريرية، لن نخرج لذلك عن المجال التاريخي، بل سنظل مقيدين بآراء النقاد الذين عرضنا لهم فيما سبق نبسطها ونناقشها، وإذن فلن نغير في هذا الجزء شيئا من منهجنا وإنما نحاول هنا أن نستعرض تاريخ مسائل النقد، بعد أن استعرضنا في الجزء السابق تاريخ النقاد ومناهجهم"[69].

وهكذا يخلص مندور بعد أن قرأ التراث النقدي إلى أن لنا تراثا عظيمًا، تأثر بتقاليد قديمة، وتوسل معارف وعلوما، وتوافر له الحذق بالأدب والحياة الإنسانية، وأعمل الذوق الأدبي العربي الخالص الذي يوافق الأدب وما يحمله من قيمة إنسانية، معللا ومفسرا لكل أحكامه بمقاييس

مستقاة من طبيعة التجربة الأدبية، ويقرر مرة أخرى أن النقد الأدبي ظل نقدا عربيا أصيلا، وأننا نملك كتابين قيمين في النقد المنهجي، وهما كتاب الموازنة وكتاب الوساطة، كما نملك كتابا ثالثا في المنهج اللغوي فيه أدق نقد موضوعي تطبيقي وأعمقه، وهو كتاب دائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني[70].

المبحث الثالث: القارئ والقراءة: منطلقات ومفاهيم

انطلق مندور في قراءته أو نقده لكتب النقد العربي في التراث من تصور ومرجعية ووظف من خلالها مصطلحات محددة ساعدته على قراءة ذلك النتاج في مسيرته التاريخية خلال العصور الإسلامية.. والسؤال الذي يفرض نفسه على البحث وقد عرضنا لقراءته للجهود النقدية العربية، هو: ما الأسس التي نهض عليها وأقام تصوره في نقده على كتب النقد الأدبي العربي؟

وحتى نستطيع أن نفهم ذلك لا بد لنا من وقفات: الأولى على مفهوم الأدب وحقيقته عند مندور إذ هو مادة النقد التي تناولها هؤلاء الأعلام، وهو أيضا طريق الإجابة المباشر في الوقفة الثانية عن مفهوم النقد الذي يباشر قراءته، والذي تتشكل وفقه زاوية النظر لقراءته للتراث، وإجراءاته، إضافة إلى الوقفة الثالثة عن التوظيف المصطلحي الذي تشكلت من خلاله مسارات التميز والتصنيف، والوقفة الرابعة علاقته بالآخر، التي انعكست على قراءته للتراث، وبلورت وعيه المنهجي رؤية وتصورا..

أ- تصور مندور للأدب والنقد

من أجل استقصاء فهم ما سمّاه مندور بـ"النقد المنهجي"، الذي عرّفه للقارئ بأنه "ذلك النقد الذي يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامة، يتناول بالدرس مدارس أدبية أو شعراء أو خصومات، يفصل القول فيها ويبسط عناصرها ويبصر بمواضع الجمال والقبح فيها "[71]. ووصفه بأنه "خير نقد"[72]، واجتهد في أن يقرأ من خلاله المناهج النقدية في التراث العربي - لا بد من أن نعاود النظر لأجل استخلاص الخصائص والأسس التي يقوم عليها فهم مندور وتصوره للمنهج، سواء في ذلك ما صرح به في مقدمة كتابه، أو في معارض مناقشة ومحاورة كتب النقد العربي القديم، أو من خلال مقاربات بعض النقاد الذين اعتنوا بأعمال مندور النقدية وبكتابه النقد المنهجي بغرض إضاءة قراءتنا دون

- الأدب

يميّز مندور بين الأدب وما سواه، فالأدب غير الفلسفة، وغير التاريخ وغير النظريات الأخلاقية

أو الاجتماعية أو السياسية[73]، كما إن مادته ليست المعاني الأخلاقية، وليست الأفكار الخالصة[74]، وكما قال لانسون: هو ذاك الذي لا يقصد منه إلى قارئ متخصص، ولا إلى تعليم أو منفعة خاصة؛ أو هو ذلك الذي يعدو ما قصد منه أولا، إن كان قصد منه شيء مما ذكر، ويخلد بعده فيقرأه جماهير من الناس لا تلتمس فيه غير التسلية أو الثقافة العقلية[75] "وتثير لديهم بعض خصائص صياغتها صورًا خيالية، أو انفعالات شعورية، أو إحساسات فنية "[76]. فأمارته إذن التأثير عن طريق جمال الصياغة وسحرها، وجميع المؤلفات الخاصة تصبح أدبية بفضل صياغتها التي توسّع من قوة فعلها وتمدّ منها[77]. بل إن من أجوده ما يمكن أن يكون مجرد تصوير فني، كما إن منه ما لا يعدو مجرد الرمز للحالة النفسية رمزا بالغ الأثر قوي الإيحاء، لأنه عميق الصدق على سذاجته[78]؛ لذلك يسلّم مندور بتعريف الأدب تعريفًا موجزًا؛ بأن "العبارة الفنية عن موقف إنساني عبارة موحية"[79].

وفي هذا التعريف يذهب مندور إلى أهمية الصياغة؛ باعتبارها خاصية الأدب الأساسية؛ فالفروق عند مندور بين نص تاريخي وآخر فلسفي أو أدبي يرجع إلى الصياغة وما يترتب عليها من الاختلاف في الأساليب، لذلك اتخذها مدخلًا لتحديد مفهوم الأدب، فميَّز بين نوعين من الأساليب: الأسلوب العقلي والأسلوب الفني. فالأسلوب العقلي يستعمل في العلم والمعرفة والتاريخ والفلسفة، وهو ما يمكن أن يدعى بـ "أدب الفكرة"[80]؛ لأن المقصود باللفظ التعبير عن المعنى، لذا اختص هذا اللفظ بالدقة[81]. لكن الأسلوب الأدبي يختلف عن الأسلوب العلمي من حيث علاقة اللفظ بالمعنى؛ فاللفظ في الأسلوب الأدبي لا يستخدم للعبارة عن المعنى فحسب، وإنما يقصد في ذاته ولذاته، لأنه هو "الأدب ذاته"[82]؛ ولأنه هو في نفسه "خلق فني"[83].

إذن للعبارة الفنية وظيفتان هما: أولًا: التعبير عن المعنى عبارة حسية، وثانيا: ربط عوالم الحس المختلفة فتحررنا مما اضطرنا إليه ضعف عقولنا من تقاسيم مفتعلة، فليس من الصحيح أن كل حاسة من الحواس قد ذهبت بطائفة من المدركات، وفي ضوء ما سقناه آنفًا من تعريف موجز للأدب يسلّم مندور بأن حقيقة الأدب مرتكزة على هذين العنصرين:

- العبارة الفنية (الصياغة / الجانب الشكلي).
- الموقف الخاص (التجربة البشرية).

التركيز على هذين العنصرين جعل تصور مندور مختلفًا عمَّا كان موجودًا من قبل، وأسس لوعي

جديد بالمنهج في دراسة الأدب ونقده وفي ميدان نقد النقد؛ لأنه ينظر إلى الأدب بصفة مغايرة لما كانت عليه النظرة السائدة سابقًا باختلاف توجهاتها.

فهم مندور الأدب في ضوء عنصرين:

- العنصر الأول، وهو الجوهر في عملية الخلق الفني، وهو (اللغة) لأن الأدب " طريقة من طرق العبارة عن النفس، يعبر باللفظ كما يعبر المصور بالألوان والناحت بالأوضاع "[84]. وليس هذا انحراف إلى اللفظية، أو احتفاء بالصنعة والتصنع، ولكنه إدراك عميق لجوهر الأدب، نابع من إيمان مندور بجمال الصياغة والشكل[85].
- أما العنصر الآخر، وهو (الموقف الإنساني) فيحرص مندور على أن يكون الأدب متصلًا بالنفس الإنسانية، صادقًا في التعبير عنها، مخلصًا وبسيطًا غير متكلف ولا مبالغ فيه، لأننا حين نكتب فـ "نحن بعد ذلك لا نكتب لنسكب ما في نفوسنا في أنفس الغير، وإنما لنعين كل نفس على الوعي بمكنوناتها؛ إذ النفوس عامرة بكل حق وجمال "[86]. وهنا تكمن حقيقة الأدب وقيمته!

■ النقد

إن حقيقة الأدب وقيمته - كما بيناها- تركا أثرهما على مفهوم النقد - من جهة- وطبيعة المنهج الذي وظفه مندور في دراسة الجهود النقدية في التراث – من جهة أخرى- ولا سيما أن الوعي بأدبنا العربي تاريخيًا ظل في نطاق الأدب التقليدي والوعي الجزئي كما ذكر مندور[87]. لذلك انحاز مندور إلى الانسجام مع الأدب وتصوره وطبيعته في الأدب العربي وشروطه التاريخية، وشروط الدراسات التي عكفت على ذلك النتاج بالدراسة والنقد وفق رؤية كل مؤلف من المؤلفين؛ لأنه سيكون من الغرابة والتناقض- كما يقول - أن ندل على الفارق في تعريف الأدب ثم لا نحسب له حسابًا في المنهج! [88] "لكننا نسارع إلى تقرير حقيقة هامة، هي أن كل منهج لا بد خاضع في تكوينه لطبيعة الشيء الذي وضع لدراسته"[89].

ومن ثم فإن مندورًا يفهم النقد فهمًا لا يختلف عن فهمه للأدب؛ لأنه يعود إلى الأصول نفسها التي اعتمدها في فهم حقيقة الأدب، وهذا شيء غير منكر، فإن العلاقة بين الأدب ونقده علاقة عضوية وثيقة، ونشوء تصور للأدب وتحديد وظيفته في ذهنه من شأنه أن يطبع تصوره عن النقد بالطابع نفسه، وإذا طرأ على ذلك التصور للأدب أو تحديد وظيفته انعكس على النقد، وهو ما

حصل مع مندور فقد تغير فهمه للأدب ولوظيفته أكثر من مرّة بعد ذلك، وتبعه في هذا التغير تغير منهجه النقدي من مرحلة إلى أخرى.

في هذه المرحلة التي كتب فيها كتابه كان مشدودًا إلى الصياغة الفنية، وكذلك كان النقد لديه في هذه الحقبة (1939م - 1949م) جماليا مشدودا إلى اكتشاف الفن، بروح الفنان المتذوق! ولذلك يرى أن: "النقد في أدق معانيه، هو: فن دراسة النصوص والتميز بين الأساليب المختلفة"[90].

هذا المفهوم انعكس على قراءته للنتاج النقدي في التراث؛ فمثلا يتساءل عن كتاب "البديع" لابن المعتز وكتاب "نقد الشعر" لابن قدامة: هل خطوا بالنقد خطوة للأمام؟ وهل هما من النقد العربي؟ وتأتي جابة قاطعة بأن "ذلك ما لا يمكن القول به: فالنقد كما عرفنا هو "فن دراسة الأساليب"، ومن الواضح أن هذين الكتابين لا يتناولان نقد الشعر نقدا موضوعيا، وإنما هما كتابان علميان قصدا إلى إيضاح مبادئ ووضع تقسيمات. فهما خلو من النقد الذي يتناول الأبيات ذاتها، فينظر فيها من جميع نواحيها لفظا ومعنى، ووزنا وشاعرية"[91]. وذلك أنه لا بد في النقد من أن يظهر تلك الخصائص في الصياغة والأساليب ويحللها.

في هذه المرحلة تتلخص عملية النقد عند مندور في كونه فنًا؛ وعلى الناقد أن يتناول من خلاله النصوص الأدبية بالدرس والتفسير، فما دام الأدب " صياغة لموقف إنساني " فإن وظيفة النقد – التي تحدد مسؤوليته- هي التمييز بين الأساليب المتباينة، وذلك عن طريق تحليل خصائص صياغة كل نص أدبي، والكشف عن عناصره الفنية.

ب- مسارات النقد التي أفصح عنها في قراءته:

قدم مفاهيمه للمسارات النقدية التي شهدها تاريخ النقد العربي، وهي بحسب ما أحصيناه:

- النقد الجزئي يصفه بـ"نقد خواطر دون تعليل"[92]، "يقف عند الجزئيات ويقفز إلى تعميمات خاطئة"[93]، ويمثل لها بعبارات ذات نظرة جزئية محدودة وأحكام عامة، تغص بها كتب الرواية والأدب العربي القديم وموسوعاته كالأغاني والبيان والتبيين وغيرهما. ويقرر ألا يسلكه في عداد النقد، ويعيبه بعدم وجود المنهج، وبعدم التعليل[94].

- أما النقد القيمي فهو النقد الذي يتوجه للحكم بالجودة والرداءة، أو لإرضاء النفس بالانتصار لنصوص على أخرى، كما فعل الباقلاني في الاستدلال على إعجاز القرآن الكريم بعجز الشعر عن طريق عكسي، أو كما يفعل اللغويون أو البلاغيون الذين يصوغون أحكامهم النقدية بالنظر لعلوم اللغة أو البلاغة كما هي الحال لدى أبي هلال العسكري وثعلب.

- وأما النقد الوصفي فهو: نقد النصوص ليُدل على خصائصها دون الحكم عليها[95]، وهذان المساران دائما التلازم فيما كتبه نقادنا العرب، وإن غلب أحد المسارين الآخر، وإذا كان النقد القيمي يعتمد على مقاييس يصطنعها من العلوم والمعرفة السائدة فإن النقد الوصفي لا يستخدم مقاييس وإنما يستخدم مناهج ونظريات كالنظريات التي اتخذها ابن سلام فيصلا في تقسيم الشعراء إلى طبقات، وكنظريات ابن قتيبة في كل من اللفظ والمعنى، والطبع والصنعة[96].

- النقد الموضعي ويسميه التطبيقي تارة؛ يقول عنه: "نقصد بالنقد الموضعي: ما كتب في نقد الشعر لذاته، وما كتبه نقاد مختصون ألفوا كتبهم لهذه الغاية"[97]. وبذلك يلتقي هدف التأليف الذي أفصح عنه في مقدمة الكتاب حيث قال: "لاحظنا إذن أن نقد القرن الرابع قد كانت له أصول كما كانت له فروع فوسعنا من مجال البحث، لكن مع حصره في المتخصصين من النقاد ومؤرخي الأدب... ولذلك لكي نظل في حدود الفكرة الأساسية، التي يقوم عليها هذا الكتاب، وهي معالجة النقد المنهجي عند العرب"[98]. وسماه النقد الموضعي؛ لأنه يباشر النصوص في ذاتها، وهذا شرط أساس فيما يستحق الوصف بـ"المنهجي" مع شرط آخر وهو صدوره عن ذوق مدرب حذق الأدب والشعر، وهو النقد الحقيقي عند مندور؛ لأن الناقد قد يورد في كتابه الكثير من الحقائق المهمة في الأدب وعن تاريخ الأدب العربي كما فعل الجرجاني مثلا حيث كتب عدة صفحات يجدر بالقارئ أن يتدبرها، ولكن كل ذلك ليس نقدا[99]. ومن خير من يمثل هذا النوع من النقد هو الآمدي والجرجاني والإمام عبد القاهر، وهم الذين يمثلون النقد المنهجي في تاريخ النقد الأدبي العربي.

ج- النقد المنهجي والذوق الخاص

يكشف مندور عن الصفات التي يتصف بها النقد الصحيح، ويكبرها في الناقد في غضون حديثه

عن كل من الآمدي والجرجاني، إذ وصف الروح النقدية للأول بأنها "روح ناضجة، روح منهجية حذرة يقظة"[100]، وقال: "إنه صدر عن روح عادلة، ومنهج صحيح"[101]. وقال عن الثاني: "وأما الصفات التي نكبرها في الجرجاني، فهي صفات العلماء التي تتميز بالتواضع والحذر والنزاهة، وعدم التحيز والعدل، وتلك صفات تعظم بها قيمة كل نقد صحيح"[102].

ذلك أن مفهوم النقد المنهجي بصفته: يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية، الذي انتصر له في التراث العربي في تجربتين أو ثلاث تجارب نقدية شهدهما التاريخ الأدبي والنقدي ، على ما سواها.

وواضح لمن قرأ الفصل الذي ترجمه عن (لانسون)[103]، تأثره الكبير بالمنهج الفرنسي في معالجة الأدب[104]. إذ يؤكد مندور دفعًا للتوهم أن النقد ما ينبغي له أن يكون علمًا[105]، ويقول[106]:" والنقد ليس علمًا ولا يمكن أن يكون علمًا، وإن وجب أن نأخذ فيه بروح العلم "، وروح العلم تكون من خلال التعليل الذي تؤهله لأن يكون علميا وموضوعيا.

إن العلم في الأدب، وفي العلوم التي تنشغل به وتشتغل عليه كالنقد عاجز عن الوفاء بما يطلبه الأدب، ولذلك فهو لا يستغني عن الحس والذوق، بل "إنه لازم حتى لتسديد خطى العلم والمعرفة"[107]، ومن خلال التقائهما يسوغ للعلم آنذاك أن يكون عدة للنقد: "إن العلم في الأدب لا يمكن أن يستغني عن الذوق، ولا يكفي الحس، والنقد الأدبي باب تختلط فيه الثقافة بصدق الحدس"[108].

د- الآخر في النقد

لقد صدر مندور في دراسته عن تقدير كبير لتراثه النقدي وتاريخه الأدبي منحه قدرا كبيرا من التسامح مع الآخر، وقدرة على تقدير أثره في التراث النقدي لحضارته العربية، مما مكّنه من الوصول لحقيقة جلية ومهمة، وهي: أن النقد الأدبي نشأ عربيا وظل عربيا صرفا، ولكنه كما تأثر بتقاليده العربية القديمة وبظهور الإسلام تأثر أيضا بالاتصال بالأمم الأخرى من الفرس واليونان ما أنشأ لديهم عقلية جديدة، كوّنتها هذه المؤثرات المختلفة وبخاصة تأثير الفلسفة اليونانية، التي اتخذها المعتزلة وعلماء الكلام أساسا لتصوراتهم ولمجادلاتهم في التوحيد والفقه واللغة والبلاغة، وهذا ما فسر به مندور ما طرأ على النقد العربي من تغير ونقلة من نقد ذوقي غير مسبب يقف عند الجزئيات ويقفز إلى تعميمات خاطئة تجعل من شاعر أشعر الناس لبيت قاله إلى نقد ذوقي مُسبّب يحاول أن

يقصر أحكامه على الجزئية التي ينظر فيها، وإن سعى إلى التعميم لجأ إلى الاستقصاء واحتاط في الحكم.[109].

وقد مكنه هذا الوعي من الاستعانة بالثقافة الغربية في استخراج المكنون وإيضاح الغامض المجمل من موضوعات بحثه والخروج بنتائج يمكن الاطمئنان إليها – على حد قوله[110].

هذه العلة نفسها جعلته ينشر كتاب الأستاذين مايبه ولانسون بمعية كتاب النقد المنهجي في طبعته الجديدة الصادرة عام 1947م- كما أشرنا سابقا- فبعد أن ذكر العلة الشكلية وهي الحرص على أن يكونا معا في متناول يد الباحثين والدراسين، أعقبها بالأسباب الموضوعية التي تهمه في هذا السياق، وقد لخصها في أنها ترجع إلى اعتقاده الراسخ بضرورة الاستفادة من تجارب الغير، ومن التقدم المنهجي الكبير الذي أحرزه الباحثون الأوروبيون في مجال اللغة والأدب "وعندي أن الاستفادة لن تكون صحيحة، وسليمة وعميقة واعية إلا بعد دراسة تراثنا العربي القديم في الأدب والنقد وعلوم البلاغة المختلفة؛ حتى تقوم استفادتنا على أساس من المعرفة بنواحي تلك الاستفادة استكمالا لما ينقصنا"[111]. وذلك كله قد ساعده في قراءته لمجمل الجهود النقدية في التاريخ العربي، ولم يجعله وقّافًا عند حدود قراءة التراث بالتراث؛ ولكنه أضاف إلى التراث جديدا مما اكتسبه الغرب وسبقوا به وإليه، وذلك مما يحسب لصالح ناقدنا ولا شك.

هـ- تصوره للأسس النقدية

ويبقى سؤال نختم به الحديث هنا، والسؤال يدور حول الأسس النقدية للنقد المنهجي التي اعتمد عليها مندور لمقاربة المدونات النقدية العربية. وتلك الأسس يمكن أن نستخلصها من الشذرات التنظيرية في الكتاب ومن تطبيقاته وقد ألممنا بكثير منها فيما تقدم غير أننا هنا نريد أن نكثفها في سياق واضح، ونلم بما لم يسعفنا العرض بتجليته.

- الأساس الأول

أن يكون الناقد خاضعًا لسلطان الفن والجمال المهيمن على النص نفسه، ولا يشغل بالهُ بالحالة أو السياقات الخارجية، وأن يتموضع في النص[112]، لأن الأدب: " لا يمكن أن نحدده ونوجهه ونحييه إلا بعناصره الداخلية؛ عناصره الأدبية البحتة "[113].

- الأساس الثاني

أن يبعد عن التعميمات التي لا طائل تحتها، ويلتحم مع النص مباشرة، ويحتك بعناصره المؤثرة،

فيتناول النصوص باستقصاء، ويحلل الصياغة، ويميز بين الأساليب[114].

- الأساس الثالث

المزج بين الذوق الشخصي والمعرفة، وهذا المزج بطبيعته سوف ينفي عن النقد الانطباعات الذاتية، ويوفر شيئا من الثبات تتحمله الآداب، ويعطي الأحكام شرعية مستمدة من الأدب ذاته، ولا تجعل من النقد نشاطا اتفاقيا، ولا بابا مفتوحا لكل والج.

. أما الذوق فقد كان يشير إليه في كل مناسبة تسنح، سواء في كتابه الأول: " النقد المنهجي عند العرب"، أو في كتابه التالي: " في الميزان الجديد "، وكأنما يحمل في نفسه إحساسًا بصعوبة قبوله من القارئ، الذي تعرض لفترة ليست باليسيرة تراجع فيها الأدب ليكون نسيجا لممارسات نقدية تفرض عليه ظنون النظريات، وفرضيات علم النفس وعلم الاجتماع.

وإذا كان فهم مندور للنقد في أدق معانيه قد أفصح عنه – كما عرضنا له آنفا- بأنه: "فن دراسة النصوص والتميز بين الأساليب المختلفة"[115]؛ فإن أولى قيم هذا المنهج الذي يقترحه للقيام بهذه المهمة، هي (الذوق الشخصي / الخاص) الذي بواسطته يستطيع الناقد إدراك ظواهر الأدب الجمالية، ولا توجد طريقة أخرى تقوم بما يقوم به في كل الآداب، وعبر مختلف الحضارات[116]

ويشدد مندور على أنه فزع إلى ذوقه مرارا أثناء قراءته للإسهامات النقدية العربية للفصل بين الخصومات والمجادلات، معتمدا على ذوقه الخاص المزود بالمعرفة، يقول في مقدمة كتابه النقد المنهجي: "ولما كنا في مجال الأدب ونقده فإنه لم يكن مفر من أن نفصل في الكثير من الخصومات والمجادلات والمناقشات برأينا الخاص الذي يستند. فضلًا عن الفكر النظري. إلى الطريقة الخاصة لكل باحث في تذوق الأدب ..."[117].

المعرفة التي يحتاج إليها الناقد: معرفة أدبية ولغوية فنية، تكتسب بالدربة على الأدب، وممارسة قراءة وتحليل النصوص، وبدراسة علوم اللغة، وليست معرفة نظرية، أو دراسة المنطق والسيكولوجيا والجمال وما إليها[118].

وقد كان مندور يصفها في أحد النماذج التراثية التي ساقها في كتابه النقد المنهجي، وهو كتاب دلائل الإعجاز وكتاب أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني بأنها مذهب يشهد لصاحبه بالعبقرية اللغوية منقطعة النظير، وعلى أساس أنه كوّن مبادئه في إدراك "دلائل الإعجاز" هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوروبا لأيامنا هذه، وهو مذهب العالم السويسري ف. سوسير،

والمهم في هذا المذهب هو طريقة استخدامه كأساس لمنهج لغوي "فيولوجي" في نقد النصوص؛ حيث تنبه عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات، ومن هنا فهو يفطن إلى أن اللغة ليست بالألفاظ فحسب وأن النحو علم يبحث العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء[119].

ونجد مندور يستحضر بشكل واضح جدا هذا الجانب عند وقوفه على المقاييس النقدية العامة التي استعملها كل من (الحسن بن بشر الآمدي) و(علي بن عبد العزيز الجرجاني) تحت مصطلحات التالية[120]:

- مقاييس شعرية تقليدية: (غير المقاييس البلاغية)
- مقاييس بيانية: (الاستعارات والتشبيهات).
- مقاييس لغوية: (تتعلق بتعبيرية الألفاظ، والجودة، وعدمها).

وهذه المعرفة وإن باشرت جانبًا ماديًا محسوساً، فإن العناية بها عناية بالجانب المُغيب من التجربة، وأعني به (الموقف الإنساني)؛ لأن اللغة مستودع تراثنا الروحي، ومن الثابت أننا لا نملك من أفكارنا وأحاسيسنا إلا ما نستطيع إيداعه اللفظ الذي يوضح الفكرة، ويميز الإحساس. وما دمنا قد فطنا إلى الدور الذي يلعبه اللفظ في خلق مادة الأدب ذاتها فمن واجبنا أن نأخذ في نقدنا . بحسب رؤيته[121] . بالمعرفة اللغوية؛ لأننا نجمع بين عناصر الآداب (الإنسانية) والجمالية. وبهذا يصبح نقد الأدب بحثًا وكشفًا عن قيم جمالية وفنية وإنسانية واجتماعية ووسائل حياة.

النتائج:

- كتاب النقد المنهجي عند العرب نال السبق الزمني على صعيد الدرس النقدي واختص بقراءة كتب النقد في التراث العربي، ولا يكاد يسبقه سوى كتاب طه أحمد إبراهيم، وإن اختلفا في حدودهما الزمنية وطبيعة المنظور النقدي، كما إنه التجربة النقدية الأولى لمندور، وهذه الأسبقية ترفع من أهمية الكتاب وقيمة النقد في هذا الحقل المعرفي.
- انطلق مندور من وعي نقدي ومنهجي على مستوى الرؤية والأدوات التي وظفها، ومستوى الحوار والمناقشة، وعلى مستوى الاستيعاب، وعلى مستوى التصنيف والتوزيع، واستحضار شروط الخطابات الأولى التي شكلت المتون، أو ارتهنت لظروف إنتاجها المعرفية والتاريخية، وعلى مستوى استقلال شخصية الناقد/ القارئ الخبير.

- جاء الخطاب النقدي في الكتاب مستوعبا، ومنصفا للجهود النقدية العربية؛ مدركا لتنوع خطاباتها المتجاورة، وتعدد مرجعياتها ما بين: ذوقية أدبية، وبلاغية بيانية، ولغوية نحوية، أو عقلية منطقية، ومعترفا بالأثر والتأثير، منفتحا على المعارف الغربية في النقد، مفيدًا من خبرات أساتذته ولا سيما أطروحات الناقد الفرنسي لانسون، التي انتفع بها، ودعا إلى توظيفها باعتدال دون استلاب إليها.
- النقد المنهجي عند مندور يجمع خصائص الأدب وما ينعكس على ممارسة النظر فيه، ويباشر الأدب دون وسائط. لذلك لم يقبل أن تنتصر العلوم على الذوق! وتكون حكمًا نهائيا على الأدب؛ حتى تلك العلوم التي صدرت عن اللغة. إذ ترقى العلوم إلى التعامل مع الأدب إذا اقترنت المعاف والآليات بما هو من جنس الأدب، وهو ذوق الناقد الخالص وفهمه.
- أدرك مندور منذ بداية مقاربة النقدية الفرق بين المنهج التاريخي والمنهج النقدي، الذي يعتمده في القراءة والبحث والتصنيف والمناقشة والحوار. وهو إذ يعترف بالمنهج التاريخي فإنه يجعله في حدود ترتيب عرض النقود والمدونات بحيث يراعي تمرحلها الزمني؛ ما ساعده في معرفة علاقاتها وما ينالها من تحور أو تراجع أو تطور.
- أعمل مندور في ممارسته النقدية مباشرة الخطاب النقدي التراثي ومناقشة المقولات نفسها، وتفسيرها، ومحاورة الآليات التي استخدمها النقاد العرب؛ ولذلك فقد كان كتابه مركزيًّا في خطاب نقد النقد للتراث النقدي، وليس قراءة مقولبة في مفاهيم ناجزة سلفا، ولا تأريخا للنقد العربي لا يعدو الرصد والتسجيل؛ إن كتابه يعد بحقٍ من الكتب المؤسسة في النقد العربي الحديث.

الهوامش والإحالات:

(1) ينظر: فاضل، محمد مندور مؤسس النقد العربي الحديث، كتب: "سألت الدكتور شكري عيّاد مرة عمّا إذا كان يعتبر أستاذه الدكتور طه حسين مؤسس النقد العربي الحديث، أم الدكتور محمد مندور؟ وهو من تلامذة الدكتور طه حسين أيضاً، فأجابني: إن الدكتور محمد مندور هو بالفعل مؤسس هذا النقد. أما طه حسين فقد كان عبارة عن بلبل غرد تطربنا نغماته". متاح على الرابط:

https://www.alriyadh.com/301102

(2) ينظر: OEUVRES CHOISISES , ED. SOCIALES, 1959؛ نقلًا عن: محمد برادة، محمد مندور وتنظير النقد العربي: 23.

(3) المثقف العضوي: مصطلح من وضع أنطونيو غرامشي تذرع به لتوصيف دور المثقف، إذ كان ينطلق من الوظيفة لتحديد مفهوم المثقف، ويقصد به: الناقد المرتبط بالمجتمع، ويتمثل مشروعه النقدي في "الإصلاح الثقافي والأخلاقي" ينظر: بو صبوعة، المثقف وتحديات التغيير: 453- 460..

(4) من هؤلاء الذين يحلو لهم جمع طروحات مندور النقدية المختلفة، ووصفها بـ" النظرية " تارة، أوبـ" المذهب " تارة أخرى: محمد برادة، وغالي شكري، وعبدالوهاب الحكمي، وفاروق العمراني، ومحمد بالحاج الغزي، وإبراهيم حمادة، وعمر محمد. (للوقوف على التعريف بأبحاثهم أو مقالاتهم المشتملة على هذا الوصف لأطروحات محمد مندور النقدية؛ راجع بحسب الاسم قائمة المراجع بآخر هذا البحث.).

(5) سالم: أعمال مندور: 44- 48..

(6) ينظر: حديث محمد مندور عن نفسه: دوارة: عشرة أدباء يتحدثون: 232، 233.

(7) ينظر: نفسه: 241- 244.

(8) مندور، النقد المنهجي عند العرب: 5.

(9) ينظر: حديث محمد مندور عن نفسه: دوارة، عشرة أدباء يتحدثون: 187- 189. ينظر: برادة: محمد مندور وتنظير النقد العربي: 46، و75.

(10) ينظر: حديثه عن ذلك: حديث محمد مندور عن نفسه: دوارة، عشرة أدباء يتحدثون: 224- 238.

(11) ينظر: برادة، محمد مندور وتنظير النقد الأدبي: 23.

(12) ينظر، الدغمومي، نقد النقد: 52.

(13) ينظر، نفسه، هامش: 51.

(14) ينظر: العمراني، النزعة الجمالية: 58.

(15) راجع البحثين بآخر كتاب: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 395 - 465.

(16) نفسه: 3.

(17) ينظر: دوارة، حديث محمد مندور عن نفسه: 208، 209.

(18) ينظر: العمراني، تطور النظرية النقدية عند مندور: 27-33.

(19) يراجع ما كتبه في هذا الصدد: عبد البر، قضايا النقد الأدبي: 258، 159.

(20) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 102، و275-276.

(21) مندور: النقد المنهجي عند العرب: 16. لانسون، منهج البحث في تاريخ الآداب: 396، 398، 402 (ملحق بآخر كتاب النقد المنهجي).

(22) شكري، محمد مندور الناقد والمنهج: 26.

(23) ينظر: دوارة، حديث محمد مندور عن نفسه: 170- 172، 177-179. شكري، محمد مندور الناقد والمنهج: 26، 27.

(24) ينظر: دواره، حديث محمد مندور عن نفسه: 181.

(25) ينظر: العمراني، النزعة الجمالية: 56، 57.

(26) ينظر: دوارة: حديث محمد مندور عن نفسه: 180، 181.

(27) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 5.

(28) ينظر: نفسه: 5.

(29) تجد هذه الأفكار متفرقة في كتاب: مندور، النقد المنهجي عند العرب: ينظر مثلاً: 125، 263، 382-389.

(30) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 16، 17.

(31) ينظر: نفسه: 20، 21.

(32) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 21.

(33) ينظر: نفسه: 21.

(34) ينظر: نفسه: 48.

(35) نفسه: 31.

(36) ينظر: نفسه: 28، 29.

(37) ينظر: نفسه: 28.

(38) ينظر: نفسه: 50-67.

(39) ينظر: نفسه: 68، 69.

(40) ينظر: نفسه: 72.

(41) نفسه: 74.

(42) ينظر: نفسه: 104، 105.

(43) ينظر: نفسه:105، 106.

(44) ينظر: نفسه: 103- 113.

(45) ينظر: نفسه: 113.

(46) ينظر: نفسه: 113- 162.

(47) ينظر: نفسه: 128.

(48) ينظر: نفسه: 163-248.

(49) ينظر: نفسه: 249-256.

(50) ينظر: نفسه: 256-258.

(51) ينظر: نفسه: 261-263، 271-276، 305-307.

(52) نفسه: 263، 264.

(53) ينظر: نفسه: 307.

(54) نفسه: 6.

(55) ينظر: نفسه: 307 .

(56) نفسه: 308.

(57) نفسه: 307.

(58) ينظر: نفسه: 308.

(59) ينظر: نفسه: 319.

(60) ينظر: نفسه: 321.

(61) ينظر: نفسه: 319.

(62) ينظر: نفسه: 333.

(63) ينظر: نفسه: 333- 338

(64) ينظر: نفسه: 339.

(65) ينظر: نفسه: 343- 356.

(66) ينظر: نفسه: 357-374.

(67) ينظر: نفسه: 374-489.

(68) نفسه: 340.

(69) نفسه: 340.

(70) ينظر: نفسه: 339.

(71) نفسه: 5.

(72) نفسه: 337.

(73) ينظر: نفسه: 21.

(74) ينظر: نفسه: 35.

(75) ينظر: لانسون: منهج البحث في تاريخ الأدب (ملحق بالنقد المنهجي): 398.

(76) مندور، في الميزان الجديد: 122.

(77) ينظر: لانسون: منهج البحث في تاريخ الأدب (ملحق بالنقد المنهجي): 398.

(78) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 35.

(79) مندور، النقد المنهجي عند العرب: 33. مندور، في الميزان الجديد: 125.

(80) مندور، النقد المنهجي عند العرب: 33.

(81) ينظر: مندور، في الميزان الجديد: 123.

(82) مندور، النقد المنهجي عند العرب: 33.

(83) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 33. مندور، في الميزان الجديد: 123.

(84) مندور، في الميزان الجديد: 194.

(85) ينظر: العمراني، النزعة الجمالية: 59.

(86) مندور، في الميزان الجديد: 118.

(87) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 360، 361.

(88) ينظر: مندور، في الميزان الجديد: 179. ينظر: لانسون، منهج البحث في تاريخ الأدب (ملحق بالنقد المنهجي): 402.

(89) مندور، النقد المنهجي عند العرب: 360.

(90) نفسه:: 14.

(91) نفسه: 73، 74.

(92) نفسه: 49.

(93) نفسه: 11.

(94) ينظر: نفسه: 5، و15- 17.

(95) ينظر: نفسه: 375.

(96) ينظر: نفسه: 306. ينظر أيضا: نقاشه الطويل لكل من ابن سلام وابن قتيبة والعسكري والصاحب: 12- 49، 229-248، 320-333.

(97) مندور، النقد المنهجي عند العرب: 379، 380.

(98) نفسه: 5.

(99) ينظر: نفسه: 306، 307.

(100) نفسه: 100.

(101) نفسه: 92.

(102) نفسه: 307.

(103) ينظر: نفسه: 395-426.

(104) ينظر: العمراني، النزعة الجمالية: 59.

(105) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 16، 17، 306.

(106) نفسه: 11.

(107) نفسه: 306.

(108) نفسه: 303.

(109) ينظر: نفسه: 10- 11.

(110) ينظر: نفسه: 6.

(111) نفسه: 3.

(112) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 5 ،14 ،74 ،376.

(113) مندور، الميزان الجديد: 163.

(114) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 49.

(115) نفسه: 14.

(116) ينظر: الغزي، المنهج النقدي عند محمد مندور: 188.

(117) نفسه: 6، 7.

(118) ينظر: مندور، في الميزان الجديد: 180.

(119) ينظر: مندور، النقد المنهجي عند العرب: 332، 339.

(120) ينظر: نفسه: 375-389.

(121) ينظر: مندور، في الميزان، الجديد: 194-195.

قائمة المصادروالمراجع:

1) إبراهيم، طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع، الفيصلية، مكة المكرمة، 2004م.
2) إسكندر، أمير، منهج النقد الإيديولوجي - دراسة، مجلة الفكر المعاصر، ع22، 1966م.
3) برادة، محمد، محمد مندور وتنظير النقد العربي، منشورات دار الآداب، بيروت، 1979م.
4) بكير، أمين، قضايا الفن والإنسان في حياة محمد مندور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995م.
5) بوصبوعة، إيمان، المثقف وتحديات التغيير - دراسة علمية، مجلة الباحث الاجتماعي، جامعة عبد الحميد مهري، قسطنطينة2، ع14، 2018م .
6) حسين، طه، في الأدب الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، 1969م.
7) الحكمي، عبد الوهاب علي، مفهوم النقد عند محمد مندور، مجلة العربي، الكويت، ع217، 1976م.
8) حماده، إبراهيم، المنهج النقدي للدكتور مندور، مجلة الجديد، ع8، 1972م.
9) دوارة، فؤاد، عشرة أدباء يتحدثون – حوار، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، 1965م.
10) سالم، حلمي، أعمال مندور، مجلة الثقافة العراقية، السنة 5، ع11، 1975م.
11) شكري، غالي، محمد مندور الناقد والمنهج، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981م.

12) عامر، سامي منير، الأصول الفنية للتذوق البلاغي عند الدكتور محمد مندور، مجلة كلية التربية، جامعة صنعاء، ع1، 1984م.
13) عبد البر، طه عبد الرحيم، قضايا النقد الأدبي.. بين النظرية والتطبيق، مطبعة دار التأليف، القاهرة، 1983م.
14) عبد السلام، مصطفى بيومي، بوح البوادي.. بوح القراءة مقاربة نقدية شارحة – دراسة، مجلة البيان، الكويت، ع551، 2016م.
15) عبد السلام، مصطفى بيومي، دوائر الاختلاف - قراءة في التراث النقدي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008م.
16) عصفور، جابر، نظريات معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998م.
17) عصفور، جابر، نقاد محفوظ ملاحظات أولية - دراسة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع3، 1981م.
18) العمراني، فاروق، النزعة الجمالية الإنسانية في نظرية محمد مندور النقدية - دراسة، مجلة فصول النقدية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج9، ع3-4، 1991م.
19) العمراني، فاروق، تطور النظرية النقدية عند مندور، الدار العربية للكتاب، طرابلس، تونس، 1988م.
20) الغزي، محمد بالحاج، المنهج النقدي عند محمد مندور - دراسة، المجلة العربية للثقافة، ع24، السنة: 13، 1993م.
21) فاضل، جهاد، محمد مندور مؤسس النقد العربي الحديث، صحيفة الرياض، السعودية، الخميس 3 ذي الحجة 1428 هـ - 13 ديسمبر 2007م، ع14416. متاح على الرابط:
https://www.alriyadh.com/301102
22) لانسون، غوستاف، منهج البحث في تاريخ الآداب (ملحق بآخر كتاب النقد المنهجي عند العرب)، ترجمة: محمد مندور، نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، 1996م.
23) محمد، عمر، مصادر ثقافة محمد مندور النقدية، مجلة القافلة، مج44، ع7، 1416هـ.
24) مندور، محمد، النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، 1996م.
25) مندور، محمد، في الميزان الجديد، مطبعة كوتيب، تونس، 1988م..
26) موافي، عثمان، دراسات في النقد العربي، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999م.
27) هايمن، ستانلي، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ترجمة: إحسان عباس، ومحمد يوسف نجم، مؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014م.

Arabic References

1) Ibrāhīm, Ṭāhā Aḥmad, Tārīkh al-Naqd al-Adabī ʿinda al-ʿArab min al-ʿaṣr al-Jāhilī ilá al-qarn al-Rābiʿ, al-Fayṣalīyah, Makkah al-Mukarramah, 2004.
2) Iskandar, Amīr, Manhaj al-Naqd al-Aydiyūlūjī-dirāsah, Majallat al-Fikr al-muʿāṣir, I22, 1966.
3) Barādah, Muḥammad, Muḥammad Mandūr & Tanẓīr al-Naqd al-ʿArabī, Manshūrāt Dār al-Ādāb, Bayrūt, 1979.
4) Bakīr, Amīn, Qaḍāyā al-fann & al-insān fī ḥayāt Muḥammad Mandūr, al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-ʿĀmmah lil-Kitāb, al-Qāhirah, 1995.
5) Bwṣbwʿh, Īmān, al-Muthaqqaf & taḥaddiyāt al-Taghyīr-dirāsah ʿilmīyah, Majallat al-bāḥith al-ijtimāʿī, Jāmiʿat ʿAbd al-Ḥamīd Mahrī, Qsṭnṭynt2, I14, 2018.
6) Ḥusayn, Ṭāhā, fī al-adab al-Jāhilī, Dār al-Maʿārif, al-Qāhirah, 1969.
7) al-Ḥakamī, ʿAbd al-Wahhāb ʿAlī, Mafhūm al-naqd ʿinda Muḥammad Mandūr, Majallat al-ʿArabī, al-Kuwayt, I217, 1976.
8) Ḥamādah, Ibrāhīm, al-manhaj al-Naqdī lil-Duktūr Mandūr, Majallat al-Jadīd, I8, 1972.
9) Dawwārah, Fu'ād, ʿashrah Udabā' yataḥaddathūn - ḥiwār, Kitāb al-Hilāl, Dār al-Hilāl, al-Qāhirah, 1965.
10) Sālim, Ḥilmī, aʿmāl Mandūr, Majallat al-Thaqāfah al-ʿIrāqīyah, al-Sunnah 5, I11, 1975.
11) Shukrī, Ghālī, Muḥammad Mandūr al-Nāqid & al-Manhaj, Dār al-Ṭalīʿah lil-Ṭibāʿah & al-Nashr, Bayrūt, 1981.
12) ʿĀmir, Sāmī Munīr, al-Uṣūl al-Fannīyah lltdhwq al-Balāghī ʿinda al-Duktūr Muḥammad Mandūr, mjlh Kullīyat al-Tarbiyah, jāmʿh Ṣanʿā', I1, 1984.
13) ʿAbd al-Barr, ṭh ʿAbd al-Raḥīm, Qaḍāyā al-naqd al-Adabī.. bayna al-nẓryh & al-taṭbīq, Maṭbaʿat Dār al-Ta'līf, alqāhrh, 1983.
14) ʿAbd al-Salām, Muṣṭafá Bayyūmī, Bawḥ al-Bawādī.. Bawḥ al-Qirā'ah muqārabah naqdīyah shāriḥah – dirāsah, Majallat al-Bayān, al-Kuwayt, I551, 2016.
15) ʿAbd al-Salām, Muṣṭafá Bayyūmī, Dawā'ir al-Ikhtilāf-qirā'ah fī al-Turāth al-Naqdī, al-Hay'ah al-ʿĀmmah li-Quṣūr al-Thaqāfah, al-Qāhirah, 2008.

16) ʿUṣfūr, Jābir, naẓarīyāt muʿāṣirah, al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-ʿĀmmah lil-Kitāb, al-Qāhirah, 1998.

17) ʿUṣfūr, Jābir, Nuqqād Maḥfūẓ mulāḥaẓāt awwalīyah-dirāsah, Majallat fuṣūl, al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-ʿĀmmah lil-Kitāb, I3, 1981.

18) al-ʿUmrānī, Fārūq, al-Nazʿah al-Jamālīyah al-Insānīyah fī Naẓarīyat Muḥammad Mandūr al-Naqdīyah-dirāsah, Majallat fuṣūl al-naqdīyah, al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-ʿĀmmah lil-Kitāb, V 9, I3-4, 1991.

19) al-ʿUmrānī, Fārūq, Taṭawwur al-naẓarīyah al-Naqdīyah ʿinda Mandūr, al-Dār al-ʿArabīyah lil-Kitāb, Ṭarābulus, Tūnis, 1988.

20) al-Ghazzī, Muḥammad Bālḥājj, al-manhaj al-Naqdī ʿinda Muḥammad Mandūr-dirāsah, al-Majallah al-ʿArabīyah lil-Thaqāfah, I24, al-Sunnah: 13, 1993.

21) Fāḍil, Jihād, Muḥammad Mandūr mu'assis al-Naqd al-ʿArabī al-ḥadīth, Ṣaḥīfat al-Riyāḍ, al-Saʿūdīyah, al-Khamīs 3 Dhī al-Ḥujjah 1428 H-13 Dīsimbir 2007m, ʿ14416. Link. https://www.alriyadh.com/301102

22) Lānsūn, Ghūstāf, Manhaj al-Baḥth fī Tārīkh al-Ādāb (mulḥaq bi-ākhir Kitāb al-Naqd al-manhajī ʿinda al-ʿArab), Tr. Muḥammad Mandūr, Nahḍat Miṣr lil-Ṭibāʿah & al-Nashr, al-Fajjālah, 1996.

23) Muḥammad, ʿUmar, maṣādir Thaqāfat Muḥammad Mandūr al-Naqdīyah, Majallat al-qāfilah, V 44, I7, 1416.

24) Mandūr, Muḥammad, al-Naqd al-Manhajī ʿinda al-ʿArab, Nahḍat Miṣr lil-Ṭibāʿah & al-Nashr, al-Fajjālah, 1996.

25) Mandūr, Muḥammad, fī al-mīzān al-jadīd, Maṭbaʿat kwtyb, Tūnis, 1988.

26) Muwāfī, ʿUthmān, Dirāsāt fī al-naqd al-ʿArabī, Dār al-Maʿrifah al-Jāmiʿīyah, Miṣr, 1999.

27) Hyman, Stanley, al-Naqd al-Adabī & madārisuh al-ḥadīthah, Tr. Iḥsān ʿAbbās, & Muḥammad Yūsuf Najm, Mu'assasat al-ʿArabīyah lil-Dirāsāt & al-Nashr, Bayrūt, 2014.